

ناتانائيل

" أَرَدَيْتُ عَلَيَّ سِتْرًا - تقولُ المرأةُ
ودخلتُ الرَّوْضَةَ -
تَعْنِي قَبْرَ الشَّيْخِ مَحْيِي الدِّينِ -
ناتانائيلُ كانَ جَنْبِي
يرى مَبْهُورًا كَطَائِرٍ يَأْخُذُ أَوَّلَ الْهَوَاءِ
بَهْجًا بِنِعْمَةِ الرَّيْشِ
صَمْتُ وَكُنْتُ أَرْتَقُبُ الْهَيْبَةَ؛
أَنْ يَصِيرَ الصَّمْتُ لَوْلُوءَةً
أُطْبِقُ كَفِّي عَلَى صَوْتِهَا
وَأَعْرِفُ أَنِّي أَمَامَ الْبَابِ
الَّذِي هُوَ الْبَابُ..
وَلَا بَرَزَخَ يَفْصِلُهُ عَنِ الَّتِي تَصِلُ..."
تَحْكِي وَكُنْتُ أَحْتُهَا
عَلَى أَنْ تَبْقَى هُنَاكَ فِي دَمَشَقِ
وَتَعُودَ إِلَيَّ فِي صَوْتِهَا
كَأَنَّهَا تَنْبَرِي فِي ضَبَابِ
وَتَلَوِّحَ لِي أَعْلَى التَّلِّ بِالْقَنْدِيلِ
عَيْنَاهَا أَبْعُدُ مِمَّا تَرَى عَيْنَانِ
وَكَفُّهَا تَتَخَلَّلُ شَعْرَهَا
نَمْشِي مَعًا
كَأَنَّهَا أَخَذَتْ يَدِي إِلَى حَدِيقَةٍ لِأَرَى
وَكَانَ لِي أَنْ أُجِمَّ الْيَأْسَ

بصوتِ امرأةٍ تَصِفُ الضوءَ
خطايَ تنشأُ من خطاي
حيوانٌ قلبي الذي كان من قبلُ يجمع بي
ويقتحم الدَّغْلَ الذي يجذبه
يتبعني وتلمسني جبهتهُ
حوافرُهُ خفيفةٌ على الطريق
"..الرَّائحةُ التي شممتُها حينئذٍ
ليست من الأرض
شيءٌ يَشْبِهُ ولا اسمٌ له،
يُنزَلُ عليك من ذاته
وتَعْرِفُ أنه هناك؛
لباسٌ من لا نهايةٍ وصَحْوٍ
تكونُ السَّكِينَةُ يداً لطيفةً على كتفِكَ
تري كأنَّكَ تَحْلُمُ
والعالمُ يَنشأُ في نظرتِكَ
وأنتَ تُشرف من ذرْوَةِ هي أنتَ
ولك أن تقولَ: " رضيتُ عمَّا يجيءُ
لأنني هنا
والرِّضا سَعْفَةٌ خضراءُ وارفة
تحرَّكُها يَدَي
أروخُ بها على الذي ينام؛
خوفي من أن أرى العالمَ
رجلاً أعمى يُلاقِي المارَّةَ
ويحضُّنهم بيدين قويتين
ثم يرتدُّ إلى خُنْدِقِهِ

وَيَتَمَرَّعُ بلباسِهِ فِي الطَّيْنِ. "

تتكوّر الحياة كلها في دمعة سعيدة

تقدر أن تَبْدُلها حبةً لامعةً

أو تحبسها لتتقوى بها

وتقدر أن تقول:

" غفرتُ للشمس أن يكون لي ظلُّ

وللأرض التي ليست سوى متاهٍ

أن يتلَهَّى النهارُ والليلُ فيها

بملء جيوب الناس بالنوى الفاسد

أو بالحجارة

وغفرتُ لي أن يُقيِمَ العالم في خندقه. " "

طريقٌ له حاشية يسقفها التوت

ويُرْسِلُ فيها الشجر الغريب أول الأزهار

هنا، حيث يلعب الصيف جمرته

قبل أن تصلا طريق الجكرندا

وتصعدا إلى ورشة الصديق

"..لغز؟ - تسأل المرأة -

أم مغنطيسٌ يشملُ الذي يَعْقِدُ يديه

أو يتربّع هادئاً

لتسند عزلته رأسها إلى فخذها،

لدى القبر البسيط

هناك حيث ما زال الذي كَلَّمَ الضَّوءَ

يشهَدُ أنه لم يطلبَ جهةً

سوى التي يُصَوِّبها الضَّوءُ

ونُقْضي إلى الباب الحيِّ

الذي يتلقاه آمنة
ويسميه جهةً إلى الباب."
أرخبثُ لجام الحيوان
وقلتُ للتي شاءتني أخا في ما رأت
وفي اللؤلؤة التي ضمَّت كَفَّها على أيدٍ:
" أجَل، إنه هو
ألا إنه الرُّوح."

عيسى، إدريس